العادة ونتائجها

بقلم جبرائيل ضومط استاذ الفلسفة والرياضيات في مدرسة كفتين

(تابع ما قبله)

لا يخفى ان القوى العاقلة لا تظهر جميعها دفعة واحدة فيتقدّم بعضها كالذاكرة ويتأخر البعض الآخر كقوّة النظر والاستدلال وما هو شبيه بها او مترتب عليها من اصابة الرأي وسداد التدبير. والذاكرة ايضاً منها ما هو متعلّق بايام الصبوة فالشباب فالكهولة وهكذا. ومعلوم ان المتعلق فيها بايام الصبوة والشباب لا يزال اخرًا في النفس بينا ان ما هو متعلّق بالشيخوخة يكون اول ما يمحي من النفس وهكذا على ما قد المعنا اليه. واما بقيّة القوى العقليّة التي يتأخر ظهورها فلا تبلغ مبلغها من القوّة والشدّة دفعةً واحدةً بل تنمو شيئًا فشيئًا الى ان تقف عند آخر حدّها ولا تزال كذلك الى ان يبدأ الانحطاط فاذا نزل هذا نحى هذه القوات على عكس ما نشأت وتكاملت اعني ان ما تكامل آخرًا يمحي اولاً و بالعكس. تفي بده دور الانحطاط مثلاً يفقد المخطُّ من شدّة القوى العاقلة الدرجة التي بلغتها تلك القوى اخيرًا فيصبح لا يقوى على الاحاطة بدركات تلك القوّة اثناء شدتها كما كان لا يقوى على ذلك قبل بلوغ تكاملها ورسوخه وهكذا وما نمثل به فيشفُّ عن المراد ويُجلّي ما نريدهُ مما ربما التوت علينا فيه العبارة القوة المدركة نسب الكيّات فانهُ يصعب على المشتغل بهذا الفن ابتداء ان يدرك نسب الكيات المجرّدة البسيطة مثلاً ثم مع تكامل تلك القوّة فيه ورسوخها شيئًا يستسهل جدًّا ما كان يستصعبهُ اولاً ولكنهُ اذا ذاك اذا اخذ يشتغل في نسب الكيّات المجرّدة من الدرجات العليا او المركّبة يرى من الصعوبة نفس ما كان يراهُ اولاً مع البسيطة ويتململ منها اذا عرضت له فاذا زاد تكامل القوّة هذه فيه بما يقوى معهُ على الاحاطة بما هو من حوطة مدركاتها عاد فاصبح يراها كالبسيطة ولا يجد منهُ الصعوبة في الاشتغال بها معشار ما كان يجدهُ اولاً. حتى اذا رسخت فيه تلك القوّة و بلغت اعظم مبلغ تصل اليه بمزاولة الاشتغال والتمرّس بها اصبحت لديه في حكم البديهيات فلا يرى من الصعوبة والمشقّة شيئًا لدى اشتغاله بها ولا يزال كذلك الى ان يبدأ دور الانحطاط فيكون منهُ حينئذٍ انهُ يرى مشقّة في التفكر بالمسائل العليا فيها و يتململ اذا عرضت له فاذا زاد الانحطاط قصّر عنها جملة وتغيبت عنهُ اثر مدركاتها لكن لا يزال يدرك نسب الكيّات البسيطة المجرّدة. ثم كلما زاد الانحطاط زاد امحاء هذه النسب ايضاً من ذهنه

الى ان يفقدها عن آخرها فيرجع الى مدركاتهِ منها ايام الصبوة لا غير. ثمَّ اذا عاش بعدها وزاد انحطاطًا تراجع فيها الى ما وراء ذلك الى ان يتوفاهُ الله

فهذا جميعهُ ينطبق على وجود المجهّز العصبي العقلي وتكيّفهِ على مثل ما قدَّمناهُ في المجهّزات البدنيّة المتعلقة بالحياة الحيوانيّة وتعليلهِ على مثل ما قدَّمناهُ في تعليلها ايضًا

وبعد اذ قدَّمنا ما قدَّمناهُ في القوى العاقلة فلا يصعب على المتفكّر مقابلتها بالقوى الاديبيّة وان يرى فيها مثل ما رأيناهُ وقلناهُ في تلك ووجود المجهّز العصبي الممكن تكيّفهُ وفقًا لما تقضي بهِ مؤثرات العادة ومناهجها . فليُتدبَّر

اهميّة العادة

قال بعض الفلاسفة اخلاق الانسان انما هي مجموع عادات والمشهور على لسان العامّة والخاصّة ان العادة خامس طبيعة ولا يخفى انهُ اذا كانت العادات مستحسنة كان لها من النفع ما لا يكاد يقدَّر لاننا نقتدر معها مع السهولة ان نأتي بافعال لولاها اما انهُ كان يتعذَّر علينا فعلها او انهُ كان يقتضي لنا من مداخلة الارادة ما اقلّهُ يشقّ على ضعفنا وينهك قوانا. وكل ذلك يصدق على العقليّة والاديبيّة من الافعال كما يصدق على البدنيّة فمن اعتاد على الاشتغال باحد الاشغال العقليّة في وقت معلوم من النهار لا يرى ادنى شيء من الصعوبة في متابعة اعمالهِ في وقتها المعيّن ولو انها من الصعوبة على اشدّها بخلاف من لم يعوّد نفسهُ مثل ذلك فانهُ يرى الحاجة الى العمل ولا يستطيع عليهِ الاَّ بعد شقّ النفس. هذا اذا كان قويّ الارادة ويعتقد منفعة ما يعمل واهيّئهُ وهو مع ذلك لا يلبث اذا ابتدأ عملهُ ان يتولاَّهُ التعب ويأخذ بهِ الضجر حتى انهُ قد يترك عملهُ بعد زمن من شروعهِ بهِ مع سموّ الباعث لهُ عليهِ . واما اذا لم يكن على ما ذكرنا من قوّة الارادة فيكاد لا يستطيع ان يأتي عملاً ولو كان متقدرًا عليهِ فيؤجّل امرهُ يومًا بعد يوم الى ان يجد ما ينزّلهُ منزلة العلّة لتركهِ . والمعروف عن الكثيرين انهم لعدم العادة يرون كتابة المكتوب مع اقتدارهم على الكتابة من اشقّ الامور عليهم فيترامون ذلك من يوم الى آخر ولو افضى بهم الامر الى الخسارة والضرر

يُحكى عن كثيرين انهم مع شدَّة حاجتهم واستيلاء الفاقة عليهم لا يرون ان يحوّروا ما كتبوهُ يومًا ويبعثوهُ الى من يكفل لهم طبعهُ ويجيزهم عليهِ بما يسدّ من عوزهم كل ذلك لعدم تعويد انفسهم وترويضها. فمن الثابت عن كولردج وكان من اقوى اصحاب البداهة واسماهم قريحةً انهُ نظم في نومهِ قصيدةً من اغرّ القصائد ولمَّا استفاق اخذ يكتب ما ثبت منها في ذهنهِ فكتب البعض وعجز عن كتابة البعض الآخر. وهذا الذي كتبهُ قيل اعطاهُ بعضهم قدرًا معلومًا من الدراهم لسدّ عوزهِ

على ان يحوّرهُ له لكن لعدم اعتيادهِ وضعف ارادتهِ مدّ اخذ يسوّفهُ في الامر ويماطلهُ بهِ قيل واخذ منهُ الدراهم ولم يستطع على كتابة ما طُلِب منهُ على هيئتهِ . ولا يخفى على الطلبة ما تسهّلهُ عليهم العادة من اتمام ما يحاولونهُ من الاعمال العقليّة ويعلمون ايضًا الفرق بين ما اعتادوهُ وبين ما لم يعتادوا عليهِ فان الاول هين عليهم سهل بخلاف الثاني فانهُ شاقٌّ عسر ولو انهُ في ذاتهِ اقرب فيهما تناولاً من الاول . وأعلم عن كثيرين انهم اعتادوا مكاتبة اصحابهم في يوم مُعيّن من الاسبوع فاذا جاء هذا اليوم اسرعوا الى الكتابة عفوًا لا يرون فيها شيئًا من الصعوبة وآخرين وهم اقدر على الكتابة من الاولين لا يكتبون الكتاب ولو عاتبهم اصحابهم على الكتابة اشدّ العتاب وطالبوهم بها المرار الكثيرة

على انّ في العادة محلاً للاحتراس من ان تتغلّب على النفس وتقوى على تصرّفها وتدبيرها فيصبح المعتاد عبد العادة لا يخالفها ولا يعدل الى غيرها مهما يدعو اليهِ الحال فان هنالك الكثيرين تسترقهم العادة وتحكّم فيهم فتصبح متسلطةً عليهم لا خادمةً لهم يُستعان بها على قضاء الواجب واتمام المطلوب واذا كانت العادة عادة سوء فتأصّلت مع المعتاد ورسخت صورتها في نفسهِ او كان فيهِ من الميل السوء ما يُتغاضَل عن اقتلاعهِ صار امر ذلك الرجل الى ما لا تُحمد مغبّتهُ فانهُ لا يعود يقوى على مخالفة هذا الميل وتلك العادة الاّ بعد العناء والجهد في توطين الارادة وقوّة القصد وقد لا يقوى على ذلك ولا سيّما اذا كان يرافق الميل شيء من الانفعال النفساني فانهُ في كل مرّة يغلب في اعالهِ داعي الشهوة تزداد الشهوة فيهِ تشهيًا والميل استحكامًا وتزداد الارادة ضعفًا وجبنًا الى ان تخضع آخر الامر اتمّ الخضوع لسلطان الشهوة وتعجز عن المقاومة كلّما عنّ لهُ مطلب او بعثها هوى . وعلى موجب ذلك ايضًا تتغلّب بعض الافكار في الذهن على البعض الآخر وتقوّى بما لا يترك مجالاً لغيرها للنموّ وعليهِ كان التهذيب العقلي والادبي من اهم ما يكون في حياتنا فانّا بهِ نطبع في اذهاننا وانفسنا صورةً لا تزول مع الايام ولا تفنى بفناء الشخص بل تتخطّاهُ الى اعقابهِ كما سيجيء . ويُعلَم ايضًا ان الحال انما هو نتيجة الماضي فمَن زرع في صباهُ حصد في شبابهِ ومشيبهِ من مثل ما زرع وليس الاّ

انهُ بناء على ما قدّمناهُ من وجود مجهّز للقوى العاقلة والادبيّة وان هذا المجهز اذا اعتاد شيئًا ازمان نموّهِ وتكاملهِ رسخ عليهِ اخيرًا واصبحت اعمالهُ من ثمّ بديهيّة او في حكم البديهيّة وبناء على ان تدبير هذا المجهز موقوف على الارادة في اول امرهِ فاذا احسنت هذه تعويدهُ وتمرينهُ في البداية كانت افعالهُ على غاية الحسن في النهاية والاّ فلا . وبناء على انّ الارادة في الصغار تكون على اضعفها ينتج معنا ان تدريب المجهّز موكول في بدء الحياة الى ارادة المهذّب من

الوالدين والمعلمين او الى فعل الظروف الخارجيَّة فانَّ هذه اعني الظروف او ما يسمونهُ بالتجارب الجديرة احيانًا بما قيل فيها

تعطي . التجارب حكمةً لمجرِّبٍ حتى ترقّي فوق تربية الابِ

لكن لما كانت هذه الظروف والمؤثرات الخارجيَّة في كثيرٍ من الاحوال تؤدّي بالصغار اذا تُركوا لانفسهم الى ما لا يُحبُّ من فشا الآداب وغلبة الشهوات واهمال القوى العاقلة كان لا يركن اليها ولا ينبغي ان تترك الاحداث الى وكالتها فقط فلا بدَّ لهم اذًا من عناية الوالدين والمعلمين ولذلك فمَن اهمل تهذيب بنيهِ صغارًا طالبتهُ العناية الازليَّة بتبعة ما يصيرون اليهِ كبارًا وعاقبتهُ على ذلك اشدَّ العقاب لانهُ لم يقُم بواجب ما اؤتمن عليهِ وجنى على الانسانيَّة اعظم جناية واضرَّ بالعمرانيَّة والدولة اشدَّ ضرر . فليتحرَّس الوالدون فان كل كلمة منهم تؤثّر في مجهّزات بنيهم اثرًا لا يمحى مع الايام وكل حركة من حركاتهم يُطبَع مثلها في انفس بنيهم وهيهات ان تزول بعد ذلك فمَن شتم على مسمعٍ من بنيهِ فقد كيَّف نفوسهم او مجهّزاتهم على الشتم ومَن افتخر بقبائحهِ على مسامعهم فقد ركَّب في فطرتهم جرثومة الفحشة والقباحة تنمو مع نموّهم وترسخ في بنيتهم متى بلغوا . ومَن حملتهُ رقَّة قلبهِ على ما يدَّعى ان بسامعهم بما يتعرفون ويغضّ الطرف عما يفعلون او يقولون ويجيب ملتمسهم الى كل ما يطلبون مما توسوس اليهم بهِ شهواتهم واهواؤهم فقد جنى عليهم اكبر جناية واساء اليهم ما لا كفّارة عنهُ في يوم الدين فانهُ انما يُضعف فيهم الارادة ويمكّن من سلطة الاهواء حتى اذا كبروا استحكمت اهواؤهم وضعفت ارادتهم فاصبحوا عبيد الشهوة وارقّاء الاهواء فكم من ولدٍ قتلهُ ابوهُ وابنةٍ سعت في خزيها امُّها وهما لا يعلمان . وواعجبًا ممَّن يعلّم ابنهُ الخيانة والحيل صغيرًا ويعجب من خيانتهِ لهُ وخبثهِ اياهُ كبيرًا او يملأ مسامعهُ بحديث الجنّ والغيلان ويعجب اذا رآهُ من بعد هذا جبانًا جاهلاً . امَّا المعلمون فمهمَّتهم اكبر المهام وواجباتهم اسمى الواجبات لانهم مهذبو العقول والقلوب وحماة الانسانيَّة ومشيدو دعائم العمران البشري على احسن تشييد لانهم هم الذين يثقّفون القوى العاقلة والاديبيَّة في نشوها وتكاملها فترسخ مجهّزات تلامذتهم وفق ما درّبوها وعوّدوها عليهِ

ولما كانت هذه مهمتهم اقتضى ان يكونوا خبيرين باحوال الفطر وشرائع العقل البشري وما يأول الى تقويتهِ وان يكون لهم إلمام باحسن الطرق لتهذيبهِ وترويضهِ ولا سيَّما العواطف والانفعالات وتدريب عقل التلميذ وارادتهِ لتكون الاولى في ارقى احوالها وتصل الى اتمّ ما يمكن لاستعدادها الوصول اليهِ من المدركات والثانية على احسن احوالها واشدّها تحسن التصرُّف والتدبير في احوال القوى ولما من العواطف الاديبيَّة والصفات اعظم باعث يبعث بها على العمل

وبلوغ مغيّاها من ترقية الانسانيّة والعمران فان لم تكن هذه بعض صفاتهم كانوا على عكس ما ذُكر اجمع . فانّ المعلّم الجاهل الخامل يضرُّ بالتلميذ ضررًا اقلُّه انهُ يعديهِ من خمولهِ و يعوّد مجهّزاتهِ امّا على الخمول وعدم الحركة وامّا على الخطإ في حركاتها توصُّلاً الى المطالب فهي لذلك امّا لا تصل اليها مطلقًا او تصل اليها بعد العناء والمشقّة (وذلك فيما اذا كان التلميذ بالطبع قويّ البديهة سامي المدارك) وذلك لا يخفى كما بيّنا من شدّة تأثير كل مجهّز من مجهّزات القوى العاقلة ازمان الصبوة بما يفعل عليها . فاذا لم يتهيأ التلميذان يتخرّج على غيرهم نشأ على خمولهم وجهلهم واذا تهيأ له في سنّ موافق التخلص من تحت مناظرتهم فاصعب ما عليهِ ان تنسى مجهّزاتهُ ما الفتهُ عند امثال هؤلاء الجهلاء و يقتضي لذلك مدّة تطول او تقصر على نسبة شدّة الاثر الذي تركهُ هؤلاء على مجهّزاتهم او ضعفهِ وقد يقتضي لذلك سنون احيانًا وانهُ فيما قبل ذلك لا تقوى قواهُ العاقلة على عمل من اعمالها وكأنّما لا اثر للتعليم فيها ولا تفهم ما يُلقى اليها

واعرف الكثيرين من التلامذة درسوا على امثال هؤلاء المعلمين فاعداهم هؤلاء من خمولهم حتى ان قواهم العاقلة اصبحت كأنّما هي مغلولة بسلاسل وكنت ارى ان امثال هؤلاء لا يستطيعون حراكًا الاّ الى جهة معلومة حسبما القوهُ من اساتذتهم وانهم لا يستطيعون ان يخطوا خطوة في جهة العلم الصحيح الاّ بعد معاناة التعب الشديد في ان تنسى عقولهم الطريقة التي عُوّدوا عليها . فانك كلما وجهتهم الى ما تريدهُ منهم رأيتهم بعد قليل رجعوا وكأنّما قسرًا الى مجاري تصوراتهم المعتادة سابقًا . ولذلك فمن احمق ما يصنعهُ الوالدون ان يكلوا امر تعليم بنيهم والعناية بهم الى قوم خاملين وعلى جانب من الجهل وضعف المدارك بدعوى ان بنيهم لا يزالون صغارًا كأنّهم لا يعلمون ان بنيهم في هذا السن تتأثر قواهم العاقلة من اقل المؤثرات وتنشأ مجهزاتهم وتتكامل على الكيف الذي يكيفها بهِ اولئك الناس حتى اذا طالت الفتهم لهؤلاء المعلمين رسخ في عقولهم او كاد آثار خمولهم وجهلهم واعتادت مجهزاتهم على ما عوّدوهم عليهِ فلا تطاوع الاّ ما كان من مثلهِ او ما يقاربهُ ولا تخرج عن ذلك الاّ بعد العناء الشديد

واسفهُ رأيًا منهم الذين يزعمون ان ايّ الناس يصلح ان يكون مدرّسًا في المدارس الابتدائية على حين ان مدرّسي هذه المدارس ينبغي ان يكونوا من احكم الناس وافضلهم عارفين بطبائع من يدرّسون واحوالهم وقوى عقولهم ليحكموا تهذيبها و ينوّعوا اعوجاجها ويصلحوا الفاسد منها واكثر من ذلك ان يهذبوا فيهم الارادة و يثقفوها لتكون في ايامهم الاخيرة اهلاً لتدبير قواهم العاقلة وصرفها الى احسن سبيل يعود عليهم وعلى الانسانية مطلقًا بالنفع الصحيح والخير العام

ولا يُظن بي اني أريد ان يكون هؤلاء المعلمون في مصاف اكبر فلاسفة الدنيا من جهة

اتساع معارفهم ونموّ مداركهم وخصوصيّة بدائهم فانّ شيئًا من كل ذلك يستغني عنهُ مدرّسو المدارس الابتدائية انما اقل ما هنالك ان يكون لهم المام وبراعة في المبادى التي يتوجه اليها عقل التلميذ يدرسها عليهم مع علم بنسبتها الى غيرها من العلوم التي يطالبونها في المدارس الكبرى فيما بعد وان يكونوا من قوّة الارادة وحسن التدبير والتصرّف ما يقتدرون معهُ على تربية عواطف من يهذّبون وامّ من كل هذا ان يكونوا عارفين باخلاق الطلبة واطباعهم ودرجة عقولهم

قلنا مرارًا ان العادة اذا استحكمت يصعب نسيانها بعد ذلك ومعلوم ايضًا ان العادات العقليّة والادبية في منشأها لاستمرارة الشخص المعتاد وحسن اعمالهِ وتصرفاتهِ ونزيد هنا الماعًا ان العادات اذا استحكمت ورسخت فقد تنتقل الى الابناء ومن هؤلاء اذا استحكمت فيهم ايضًا الى ابنائهم وهكذا الاّ انها في كل جيل قد تكون ارسخ مما قبلهُ وابعد عن ان لا تظهر في الاعقاب الى ان قد تصبح تلك العادات اخر الامر بمنزلة الغريزيات كما سنذكر عن ذلك فيما يأتي وبناء على ذلك كلهِ كان من المهم ايضًا ان نبحث عما ينبغي ان نغرسهُ في الصغار وعن الطرق الموصلة الى ذلك وسنذكر الاهمّ وبالله الاستعانة (ستأتي البقيّة)

مذهب جديد في قوّة النموّ

لا يخفى انهُ لولا نور الشمس وحرارتها ما عاش حيوان ولا نبت نبات على وجه الارض وهذا الامر معروف مشهور من قديم الزمان . واما علاقة الشمس بالنموّ فاوّل من بحث عنها العالم الدنيمركي "لمن هنسن" مدير دار الصمّ البكم في مدينة كوبنهاغن . ذلك انهُ أمر منذ بضع سنين بتغيير طعام الاولاد الذين في الدار المذكورة فخطر لهُ ان يراقب تأثير الطعام الجديد في صحتهم ونموّهم فجعل يزنهم كل يوم ويقيس طولهم وتخنهم . وكان المظنون ان ثقل الاولاد وطولهم يزيدان زيادة مستمرّة على مدار السنة ولكن ظهر الامر على خلاف ذلك . فانهُ وجد ان ثقل هؤلاء الاولاد وهم سبعون ولدًا يزيد كثيرًا في فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء ثم تقلّ الزيادة رويدًا رويدًا حتى تنقطع في شهر ابريل (نيسان) ومن ثمّ يأخذ الجسم في النقصان فيفقد مقدار ما اكتسبهُ في فصل الشتاء ولا يبقى فيهِ الاّ مقدار ما اكتسبهُ في فصل الخريف .

ووجد ايضًا ان ازدياد الثقل يقف بغتة عدّة ايام في بعض الاحيان او ينقلب الى نقصان

وبعد مراقبة طويلة مدة ثلاث سنوات أتصل الى هذه النتيجة وهي : ان ثقل الاولاد الذين سنهم بين التاسعة والخامسة عشرة يزداد كثيرًا من اوائل شهر اوغسطس (آب) الى اواسط